تيمة الموت في رواية "كاف الريح" لياسين نـوار

Death theme in the novel "kaf alryh" by Yassin Nawar

د. زهور شتوح

جامعة باتنة1 ، zhour.chettouh@univ-batna.dz

تاريخ الاستلام: 2019/08/20 تاريخ القبول: 2019/10/29 تاريخ النشر: 2019/12/31

ملخص:

تفيض الرواية المعاصرة بإشكالات الموت، نتيجة الظروف الراهنة التي صنعتها النزاعات والحروب الحضارية الدامية، إذ جعلت من الموت ظاهرة تستدعي النظر والتأمل، ويكتسب "الموت" أهمية جلية في رواية " كاف الريح" للروائي "ياسين نوار" من خلال معالجة الكاتب لظاهرة الحرب التي تحيل على الموت بشكل مباشر.

إن الموت في هذا النص الروائي اتخذ أوجها عدة من مادية ورمزية ومعنوية، إضافة إلى أنه شكل صراعا حادا مع الحياة، واستطاع فرض وجوده بالقوة، والتغلب على الحياة طيلة فصول الرواية، التي لم تتحرر من سيطرة الموت إلا بعد أن استنزف أغلب مقوماتها، غدا النص إثر ذلك مأساة تنزف بالحزن والألم والسوداوية.

كلمات مفتاحية: تيمة، التأويل، الموت، الرواية، كاف الريح

Abstract:

The contemporary novel is flooded with the forms of death ،as a result of the current circumstances created by conflicts and bloody civilizational wars ،as it has made death a phenomenon that calls for consideration and reflection. Death is of great importance in the novel "Kaf El Reeh" by the novelist "Yassin Nawar" through the writer's treatment of the phenomenon of war that refers to death directly.

The death theme in this narrative text was addressed in several respects: material ،symbolic and moral ،in addition to that it formed a sharp struggle with life ،and was able to impose its existence by force ،and overcome life throughout the chapters of the novel ،which was not liberated from the control of death only after it depleted most of its Rectifiers ،the text became A tragedy that bleeds sadness and pain.

Keywords: theme; interpretation; death; novel; kaf alryh.

المؤلف المرسل: زهور شتوح، **الإيميل**: zhour.chettouh@univ-batna.dz

1. مقدمة:

انشغل الفكر الإنساني منذ الأزل بعارض الفناء الذي تتجسد صوره في الكون في تمظهرات عدة، حيث تفطن لقوة الموت التي تقضي بالاضمحلال والاندثار على كل شيء، لكن خوفه من الموت نابع من الالتصاق الرهيب له مع ذاته، ممزقا نسيج علائقه الرابط بينه وبين الفضاء الكوني زمانيا ومكانيا، تضخم خوفه من الموت أكثر؛نظرا للغموض المعقد المحيط بهذه الظاهرة، وانغلاقها على أسرارها وإغراقها للإنسان في عالم المجهول، مما يجعله يبحث عن علاج لهذا الداء تارة ويبحث سبلا للخلاص من قبضة الفناء الذي يجرح انتماءه للحياة، ويقطع حبل اتصاله بالوجود بعنف، من خلال

اكتشاف قيمة الخلود والسعي نحو اكتسابها، هذا ما تعكسه التصورات العقائدية البدائية التي تبحث في أسرار الحياة والموت.

استمر هاجس الموت يراود الإنسان في كل عصر،إذ أنه الظاهرة الوجودية الوحيدة التي كثرت حولها التساؤلات،وطرحت حولها إشكالات كثيرة، تهدف إلى كشف خفاياها، واختراق عالمها المبهم، تجد الموت موضوعا متناولا في ميادين عدة؛ دينية وفكرية وفلسفية وعلمية وأدبية،كل درس الموت من منظوره الخاص.

انشغلت الأعمال الأدبية في متونها الشعرية والنثرية على استثمار تيمة الموت كرافد فكري وجمالي؛ يغذي النصوص ويولد فيها دلالات مكثفة تمنحها ثراء فنيا وموضوعيا، سيمات لكل النصوص التي تطرح قضايا وجودية وإنسانية مستقية طاقتها الإبداعية مندهشة الموت وانفتاحه اللامتناهي على موضوعات متشعبة عنه.

وقد كان حضور الموت بارزا في" رواية كاف الريح"، حيث تعدد تمظاهره وأشكاله في هذا الفضاء الروائي،مشكلة تساؤلات هامة، تدفع القارئ إلى البحث عن روابط الوصل بين تجليات الموت المختلفة في هذه المدونة، من خلال طرح الإشكالات التالية:

ما المقصود بتيمة الموت؟ وما أوجه حضورها في رواية "كاف الريح؟ ثمم أبرز مظاهر وتشكلات وانعكاسات الموت في هذا النص؟

2.مقاربة المفاهيم والمصطلحات

أ–مفهوم التيمة:

يعود الجذر الأصلي لكلمة التيمة إلى اللغة اللاتينية ، فهي كلمة من اللفظ اللاتيني(تايما) ويعني الشيء الذي نصنعه، أما الكلمة نفسها فتعني الفكرة الأساسية أو التكوين الرئيس للجملة أو النص[1]، يرد لفظ التيمة من نفس الجذر اللاتيني في المعجم الفرنسي حيث "يشتق مصطلح "الموضوعاتي (thématique)في الحقل المعجمي الفرنسي من كلمة théme،وهي التيمية[2]

يرادف مصطلح (théme)عند جماعة اللسانيين الوظيفيين الحديثين مصطلح التعليق ،وذلك لما يضفيه التعليق والقراءة الجديدة من رؤى فكرية وإشراقات فنية وجمالية تشكل هي الأخرى موضوعات تتعلق ببؤرة ومنطلق الموضوع المحوري .

يعرف جورج بولي الموضوعاتية قائلا عنها:«وحدة الموضوعات هو مبدأ ذاتي :أنه الوعي الذييجعل منه مجموعا يضمن هوية ما،كيفما كانت التمزقات والتنافصات التي تصيبها". [3]

أماجونبول ويبر Jean paul weber فيرى أن التيمية تلك «الصورة الملحة والمتفردة والمتواجدة في عمل كاتب ما». [4]وقد ظهرت في الساحة النقدية العربية ترجمات عدة لمصطلح théme وthématique حيث "ترجمت كلمة théme بما لا يقل عن خمس عشرة مقابلا: «تيم ،تيمة ،ثيمة ،تيمة ،موضوع، موضوعة ،غرض ،مضمون،معنى رئيسي،جذر،محور ،ساق ،ترجمة ،قضية ،فكرة ،خيط،...،"[5]كلما ترجمت كلمة thématiqueبما لا

يقل عن ثلاثة عشر 13 مقابلا:«التيماتية ،التيمـة، التيمـاتيكية، الغرضـية، الأغـراضية ، الجذرية ،المضمونية ،المنهـج المداري ، الموضوعية،المنهج الموضوعي، الموضوعاتية ، المواضيعية، نظرية الموضوعات،...»[6]

أما مفهوم التيمة عند النقاد العرب فقد كان متقاربا في مركزه وجوهره ،يعرف سعيد علوش هذا المصطلح بأنه "في الحقلين العربي و الغربي هو التردد المستمر لفكرة ما ،او صورة ما ،فيما يشبه لازمة أساسية وجـوهرية ، تتخذ شكل مبدأ تنظيمي ومحسوس أو ديناميـكية داخلية أو شـيء ثابت يسمح للعالم المصغر بالتشكل والامتداد [7]

وفي موضع آخر يعرف الموضوعاتي أنه «إطار وبنية صغرى ونموذج للواقع ونظام لترتيب معارفنا حول موضوع ظاهرة ما في العالم »[8].يتضح من المفاهيم السابقة أن التيمة تعني في معناها العام ، عنصر يتكرر برقابة معينة في عمل ما ، مما يجعله مترابطا منتظما في شكل لحمة واحدة معطية بنية صغرى تتطور في تشابك يمتـد بانتظام حتى يغدو العمل في هيئته المكتملة التي يظهر عليها في نهايته.

2.2 مفهوم الموت

أ. لغة:

كلمة "موت "مشتقة من الجذر "مات ،يموت ،يموت ، موتا ومات يمات ومات يميت ،ويقول " الأزهري عن الليث": « الموت خلق من خلق الله تعالى . ويقول غيره: الموت والموتان ضد الـحياة ،الموات بالضم :الموت . مات ، يموت موتا ويمات ، الأخيرة طائية ».[9] وجاء كذلك في لسان العرب " لابن منظور ":«ورجل ميت وميت وقيل: الميت الذي مات، والميت والمائت:الذي لم يمت بعد»[10]

بناء على التعـريفين؛ نسـتخلص أن كلمة "موت "لغويا مشـتقة من الجذر اللغـوي "مات "الذي يتضمن دلالة الاضمحلال والفناء والتلاشي.

ب. اصطلاحا:

يشغل الموت كظاهرة كونية حيزا هاما في مختلف الاتجاهات الدينية والفكرية والعلمية والأدبية ،كل حاول العروج على "الموت " للقبض على مفهومه في سياق انشغاله ، وليس هذا الا انعكاسا لإدراك الإنسان حقيقة المصير المحتوم "الموت " الذي يتربص به ؛وبالتالي إدراك ميزة البشرية التي يتفرد بها فهو لا يدرك إنسانيته وخاصيته البشرية إلا بإدراكه لفنائه ،فالفناء صفة لصيقة بالذات الإنسانية ؛ فهذا التوغل في الذات لملامسة طبيعتها البشرية تجعل الإنسان يصطدم بحقيقة ملازمة لها ألا وهي الفناء المحتوم ، والموت خاصية بشرية خالصة تتصل بالإنسان دون ما سواه من الكائنات الحية الأخرى فالموت «يظل إمكانية فريدة لا تخص الا الموجود الإنساني ،أما الكائنات الاخرى فإنها تتفق »[11]

ربما هذا الانفراد الذي يخص به الموت الإنسان وحده، هو ما أحاطه بهالة من الغموض الباعث على الحيرة والقلق الموحي باللامألوف،«يتداخل فيه عنصر محير ولا معقول»،[12] مثير للدهشة كونه يأتي مفاجئا، وفجأته والدهشة التي يثيرها ليس لكونه شيئا جديدا على الذات الإنسانية، بل لحلوله ووقوعه على نفس دون نفس أخرى في وقت ما دون غيره. هذا ما يجعل الإنسان لا يرتاح له ولا يأمنه وهو الآخر القادر على المباغتة لأي كان في أي آن، حيث يقطع عن الإنسان سبل التواصل وشبكة العلائق الممتدة بينه وبين الوجود مكوناته المتباينة، ويهدم جسر الترابط بين الكائن البشري وبيئته ويمزق النسيج الموحد له مع بقية العناصر الكونية، فالموت بذلك يحطم الإرادة الفاعلة في الذات ويعطل انتماءها ويشوش قنوات

تواصلها ضمن محيطها، كابحا جماح الحرية وطاقات التفاعل في عالمها الوجودي «فالموت فساد المزاج وقصور الجسم عن الانفعال للنفس لعدم الحس والحركة»[13]، فهو تغير فيزيولوجي نتيجة خلل يعطل وظائف الجسم المادي، فينقطع بذلك تيار التواصل بين الروح الأثيرية والجسد المادي الذي تكون نتيجة غياب التفاعل الطبيعي للجسم حسا وحركة.

يسخر الإنسان ضمن حركته في بيئته طاقاته الكامنة عقليا ومعنويا وجسديا في عملية البناء الكوني، ويغذي بذور التطور بالقيم الهادفة ويفجر قوى الابتكار والإبداع، محركا نقاط التغيير الفعال، أثناء هذه الحركة الخلاقة ، وفعل التشييد الخضاري في حكم إثبات خلافته في الأرض، يكون ملاحقا بظل السوداوية المحلقة قريبا منه، تنقض عليه فجأة تسلبه حرية العطاء والبناء، وتهدم العنصر الفاعل فيه، فتطفئ قيس الطاقة المتدفق فيه الذي ينتج طاقة التفاعل مع الكون فيكون ذلك«تدمير لقدرة الفرد على خلق القيم وهو القضاء على الحرية»[14] فيخمد الإنسان ويسلب فعل التصرف منه فاقدا بذلك وسيلة وسبب التوجه إلى الحياة.

إن الخوف والقلق والحيرة تجاه الموت ليس متعلقا بغفلة الإنسان أو جهله لمصيره الآيل للفناء، بل لما يسببه الموت له من اغتراب عن الذات والكون وما فيه، وعن سلبه حريته في التفاعل الحيوي والإنتاج، وهدم نسيج العلاقات وتحطيم المنجزات التي تعبر عن حضور الفرد في الكون وإثبات وجوده المهم حسبه، فيحس بنوع من استلاب الملكية.

3.وظائف الموت الفنية في الرواية

إن توظيف تيمة الموت في الرواية خاصة والأدب عامة لا يقتصر في التعبير عن مأساة هذه الظاهرة وحيثياتها، بل يتعداه إلى الانفتاح على آفاق فكرية وجمالية تشحن المتن اسردي بدفق فني يبعث حس المتعة في ذات المتلقي ويستحثه على السفر في عالمه التخيلي، وملاحقة قبس النور المثير للدهشة في سماء التكوين الفني للعمل الإبداعي ، فيبرز دور الموت المتعدد الوظائف ؛ وذلك حسب موقعه من السلم السردي فإما أن يتصدر العتبات الأولى في النص فيستلم بذلك "وظيفة الاستهلال الروائي"، أو يسهم في بناء النسيج السردي فيكون "وظيفة التحويل للأحداث"، أو يتوارى خلف دوال معينة فيؤدي بذلك "الوظيفة الرمزية".

1.3وظيفة الاستهلال الروائي

يشتغل الكاتب في العتبات النصية الأولى على تجسيد فكرة الموت، ابتداء من عتبة العنوان فالمقدمة فالإهداء وصولا إلى المتن الروائي حيث تنتشر تيمة الموت بارزة ؛ يتضح دور الجملة الافتتاحية في «كونها حلقة تواصل بين المؤلف والسارد من جهة، أو بين المتلقي من جهة ثانية ، وعبرها يتم تحديد العديد من المنطلقات الأولية التي تهم الجنس الأدبي وإفضاءاته»[15]، فهي تفتح أمام القارئ تساؤلات البحث عن نبض الحياة داخل الرواية، وتتبع أثره بين ثنايا النص على امتداده.

قد لا يمثل الاستهلال في حد ذاته وظيفة، بل يكون بؤرة انبعاث وظائف تشكل بنية دينامية تنعش العملية السردية وتنسجها في آن واحد ، فهو بذلك – الاستهلال-«عنصر يؤسس لظهور الوظائف ، ويفتح به الراوي خبيئة الحكاية لتنمو وتزدهر ، وأهم من ذلك أنه يقدم صورة لرخاء غير عادي يركز عليه أحيانا في صور حية وجميلة ويخدم هذا الرخاء كخلفية مناقضة لما سيقع من سوء طالع»[16]، إذ إنه يؤثث من خلال هذه التقنية الفنية لاختراق أفق توقع القارئ

، والانزياح به خارج الجو المألوف المكتنف بالسمينة والجمال ، إلى آخر تنقلب فيه الموازين مناقضة للهدنة السائدة في مستهل السرود والمروي، فيحس القارئ أو المتلقي بالاقتراب من منطقة الخطر القادم من مستقبل الحكاية ، حيث « تعد الحالة الرخاء غير العادي "الواقع في بداية الحكاية- مؤشر لحالة الاتزان الحدثي ، الذي يتنبأ السامع القارئ بزواله بعد قليل ، للدخول إلى حالة اللاتوازن التي تلي حالة الرخاء»[17]كما خطط لها الراوي بمتانة.

2.3 وظيفة تحويل الأحداث

يغزل الكاتب من الموت في هذه الحالة نسيجا يعقد فيه الأحداث انطلاقا من معرجات تغير مسار الرواية ؛ حيث يكون الموت فاصلة تحول الأحداث، ومركزا تنتشر منه ارتدادات تهز نحرى حيثيات العمل الأدبي ، التغير الحاصل بفعل الموت يتجلى في ذات الشخصيات ، فيبدو منعكسا على مشاعرها وأفكارها، وهذا التأثر بحصول الموت إما إيجابا أو سلبا حسب موقع الموت من نفس الشخصية ، فيصبح الموت في هذه الحالة حيلة فنية يستعملها الكاتب ليساعده على إحداث تحولات في سير أحداث الرواية أو في حصول أحداث عميقة في الذات أو في الشخصيات[18]، أو يكون التغيير في العلاقات القائمة بين شخصيات الرواية بسبب موت معين، إذن يشكل الموت فارقا أساسيا في صيرورة الأحداث وتتابعها ، هنا تتضح الوظيفة الفنية للموت؛ إذ يقلب مفهومي الحياة والموت ، فيصبح الموت انبعاث حياة أخرى ، والموت أنواع حيث يمكن أن يتعلق بالشخصيات أو عناصر مكونات أخرى ، والناتج دائما هو جدل يتصارع فيه الموت مع مقابلة الحياة ، فتكون حياة الرواية وتتنفس من هذا التراكب في الأحداث الذي يتمخض عن موت معين.

3.3 الوظيفة الرمزية

تتمثل الوظيفة الرمزية للموت في تخفي الموت وراء مدلولات معينة ،يؤدي تأويلها وقراءتها إلى دلالة الموت، وتنشأ بذلك معادلات بين الموت وعناصر أخرى في الرواية، ويتقاطع الموت في مفهومه مع عناصر معنوية باشتراكها في نقطة جوهرية يكشف عنها سياق الخطاب أو النص، كأن يكون الحرب معادلا موضوعيا للموت، باعتبار كل منهما يخنق وتر الحياة ويحد من أفق الحرية ويقضي على أسباب التنفس في جو السكينة والطمأنينة، وكل منهما يشترك في عملية الهدم بمختلف دلالاته؛ هدم مكونات اجتماعية ونفسية معينة، فالحرب « يشير صراحة إلى موت الضمير والقيم الجميلة والحرية والعدالة والمساواة وغيرها»[19]، أو قد يتعادل موضوعيا مع الجهل أو موت الضمير أو الفقر أو المعاناة نتيجة المرض وغيره.

4.تمظهرات الموت والحياة في الرواية

تفرز الظروف والتحولات النفسية والفكرية والاجتماعية أنواعا من الموت، فإن كان مفهوم الموت المتعارف عليه تلقائيا هو مفارقة الروح للجسد نهائيا، يقع جبرا على الإنسان ويأتي كحتمية مصيرية يشترك فيها مع بقية الناس، كلنا ندرك إن المرء لابد مفارق هذه الحياة يوما طال وجوده أم قصر، فهذه إذا سنة من سنن الكون التي لا مفر منها يتعايش معها الإنسان ،ويمضي في شؤون حياته مفعما بالأمل والجد في الكسب والتحصيل، كأنه نسي الموت تماما، وتخلص من الفناء الذي يلاحقه في كل خطواته ممزوجا بروحه يسري معها في جسده، إن كان هذا هو الموت عموما، يتصف بكل هذه البساطة ومألوف إلى حد تجاهله من قبل الإنسان، فإن هناك أنواع أخرى من الموت، تأتي رهينة شروط معينة منها: «موت اجتماعي وعاطفي وموت سياسي ووطني، وموت فكري وفلسفي، وقبل هذا وذاك موت حقيقي، أو قتل الكائن

الخيالي في العمل الفني يؤتى به ليشتغل اشتغالا حسنا في القصة »[20]،يتسع مفهوم الموت وأفق معانيه ليشمل دلالات عميقة ترمز إلى الموت دون أن تفصح عنه، تحمل هذه التمظهرات الموت في أغوارها ،وتعكس جزءا منه في صورة توحي للفهم ان هناك موت ما يختبئ في ناحية قريبة من صورة الانعكاس تلك، دون أن يلمس الموت بصورته المعهودة.

تشتغل العديد من المتون الشعرية والنثرية على استثمار هذه الصور المجازية للموت، تخصيب العمل الإبداعي بتيمات فنية وجمالية، تتكاثف كلها لتنسج صورة الموت المقصود، يغدو بذلك النص حافلا بصراخ الموت وأنينه وإيقاعه الجنائزي الذي يقتحم الحياة ويحاصرها، ينسحب شعاع الحياة اذ ذاك، تاركا المجال لتوغلات الموت، تذبل كل مظاهر الحياة وتشعب ملامحها تحت تأثير الموت الذي يخنقها.

تكثر تمظهرات الموت بدرجة كبيرة؛ في النصوص التي يتناول المآسي الإنسانية باختلاف أنواعها، سواء ما تعلق بمعاناة الإنسان مع نفسه أو صراعه مع الآخر، في ظل العلاقات المعطوبة التي تسبب له الألم والاغتراب عن الذات وعن المحيط الاجتماعي.

قضية الثورة التي عالجتها رواية "كاف الريح "،جعلت من الموت محورا أساسيا تدور حوله الأحداث، هذا يرجع إلى ان الموت معادل موضوعي للحرب، وهدف ونتيجة له في كل الأحوال، يتدرج هذا الأخير في مستويات عدة يعكسها النزاع في أشكال متباينة، موت نفسي واجتماعي وروحي...، حتى أصبح الموت يشكل نقطة انعطاف مهمة في المسار السردي، تتغير وفقه بنية النص الدلالية، وتتبلور على إثره التحولات الداخل نصية، تتنامى الأحداث وتتطور في نطاق موت معين لتنتج انتقالا مرحليا، تعرف به القصة أفقا جديدا تتدفق منه دلالات تتمخض عنها طقوس سردية تمتاز بخصوصية تفصلها عما سبقها وما سيليها.

الشخوص الروائية المشاركة في صنع الحدث الروائي في مدونة "كاف الريح"، جلها عانت من هاجس الموت الذي يصارع وجودها، تختلف مظاهر هذا الصراع مع شبح الموت من شخصية لأخرى، إذ أن هناك من ذاق الموت النفسي الداخلي، واختنق بالوحدة

أوجاع الفراق والفقد، تجلى الفقد الدال على الموت في تلاشي الثقة في النفس والآخرين والوجود، بعدما تعرض صاحبها للخذلان والغدر وجرب مرارة العجز أمام قساوة الحياة التي، سلبته الأمن والأحبة وكل ما يرمز للراحة والهناء، في حين يوجد من قاسى فقرا وحرمانا وذلا أدى به إلى اغتراب يفضي إلى موت اجتماعي، أيضا هناك من ماتت فيه القيم والأخلاق وتجرد من إنسانيته، وأصبح مفرغا من مقومات الحياة الروحية، فغدا هو الآخر متشظيا روحيا، ان اخطر أنواع الموت فهو الموت الوطني ن يعني ذلك تمزق رابط الشعور الوطني الذي يمنح الفرد إحساسا بالانتماء، ويبعث فيه الغيرة والتضحية من أجل أن يحي وطنه حرا شامخا، يحدث هذا الموت مفارقة متضادة مع المواطنة، حيث يبذل الذي يموت شعوريا تجاه وطنه ما بوسعه لطعنه وهدمه، ويثور على إخوانه ويؤذيهم، مساندا للعدو منتصرا له، فيكون بذلك الوجه المشوه للوطن ،المدنس بالخيانة والغدر، يبقى الموت الطبيعي الأكثر بروزا في الرواية، كنتيجة بديهية للقتال الضاري بين المستعمر والثوار، تختلف طرقه من قتل بالرصاص والذبح والتعذيب حتى الموت وغيرها من الأساليب...

تصنف كل أنواع الموت المذكورة آنفا إلى ثلاثة أصناف رئيسية هي:

الموت الرمزي والموت المعنوي والموت المادي(الفيزيقي)، تتفرع من هذه الأشكال الثلاثة في الرواية مظاهر عدة توحي إليها، باتفاقها وتقاطعها في خصائص تكسبها لونا مشتركا يشير إلى نوع الموت الحاصل.

1.4الموت الرمزي

يظهر الموت الرمزي بين ثنايا الرواية من خلال القيم السلوكية والاجتماعية الغائبة في شخصيات المتن السردي، إذ نلحظ أن الشخصيات السلبية تصور بانفعالاتها وأفعالها تجليات الموت الرمزي، وتعاني من أعماق شعورها استلابا ناتجا عن الخشية والرهبة من الموت في إطاره المعهود (الموت الطبيعي)، أنها تعيش موتا داخليا حيث: «أن مفهوم الموت مرتبط لدى كثير بانفعالات عنيفة ومشاعر جياشة واتجاهات سلبية تتجمع، معا مكونة بإيجاز "قلق الموت" أو الخوف منه»[21]، إذن يشكل الخوف من الموت صورة تعكسه رمزيا.

يمثل الموت الرمزي في الرواية شعور الخوف الذي يسيطر على أفراد عديدة، منهم قائد العسكر الفرنسي الذي قتله "كمال" ووصفه قائلا: «سقط الجبل وكان قد مات قبل ذلك بوقت طويل، قتله خوفه قبل أن يهوي»[22]، الخوف من الموت يجعل التفكير به يطغى على التفكير في الحياة ويهمشها ويطمسها، يصبح الإنسان بذلك يعيش موته في كل لحظة بدل أن يحس بالحياة، هذا ما حصل للفرنسي الذي طعنه "كمال"، انقطع عنه شعور الحياة لغرقه في الخوف، انحدر في غياهب الموت دون وعيه ذلك.

الخيانة موت حقير يمارسه الإنسان الفاقد للمروءة والنخوة، هو تعفن في الحياة يفوق نتانة الجيفة، خاصة إن تجرأ الشخص على خيانة أصله ومنبته، خيانة أعظم شيء يعتز به كل فرد يضحي من اجله بروحه وأنفس ما يملك، إنها "خيانة الوطن"، هذا الكيان العظيم الذي يشعل لهيب ثورة النفوس السوية من أبنائه المخلصين إذا حلق به خطر واستبد به عدو، في المقابل يعرضه هؤلاء الخونة لمساومات دنيئة، هم الذين يضحون بالوطن من اجل مصالحهم، يدفعون به إلى الهلاك بلا أدنى إحساس بالذنب.

أهم ما يميز شخصية " محفوظ ولد الجاي" في راوية "كاف الريح" هي صفة الخيانة، التي تعدّ موتا رمزيا، موت المبادئ والأخلاق والأهم من ذلك موت الوطنية فيه، فقد انتماءه للوطن ولم يحظ عِوَض ذلك بوطن آخر، رغم محاولته الذوبان في المجتمع الفرنسي وتحقيق ذاته كفرد منه، إلا أنه لقى الرفض والهوان، إذ كان مجرد وسيلة يستغلها المستعمر في قضاء مصالحه، كُوفِئَ بهذه الطريقة "رغم أنه باع روحه وجسده وكل شيء يملكه أو سوف يملكه"[23] لخدمة العدو وإعانته على وطنه، وأفظع من ذلك كله موت الوفاء والإخلاص في روحه، وانقلابه ضدّ العائلة التي تقاسمت معه لقمة العيش فيما مضى وآوته حين كان شريد بلا مأوى، صار الآن يتوعّد أهلها بالويل " افعلي ما يحلو لك يا فاطمة العجوز، قولي كما تريدين، ولكنني أعدك أنني حينما امسك فلذة كبدك سترين ما أنا قادر على فعله، سوف اشوي شحم أذنيه على أصبعي هذه وهو ينظر"[24]؛ هكذا خاطب "محفوظ" من كانت له أُمًّا حنونا ذات يوم، لم يشعر بخجل أو حياء حيال ما يفعل، هوى إلى الدرك الأسفل من الوقاحة وماتت فيه كل مقومات الإنسانية والشهامة، حتى صار باعثا على العجب لمن حوله" لقد أدهشه أن يفعل محفوظ ما يفعل ببني جلدته ؟تعجب أن يصنع مالا يجرؤ أي كان على الاقتراب منه أو التفكير فيه، إلا أن يكون مغيب العقل أو مضطرا لا محيد له عن اقتراف المنكر؟"[25]،هذا ما تبادر إلى ذهن الضابط الفرنسي "فونتين لا مارك" عندما رأى من هذا الخائن إصراره على أذيه أبناء وطنه، والتخطيط بإحكام للإطاحة بالثوار وإفشال المقاومة، كان ذلك بالنسبة إليه فعل شاذ لا يقدم عليه شخص سليم العقل والفكر.

من مظاهر الموت الرمزي أيضا اجتماع أسباب على تغيير الفرد من حاله الأصلية إلى وضع سيء، يستحيل فيه إلى شخص آخر غير الذي كان " مؤخرا صارت نوارة كالشمعة تخبو وتنطفئ تدريجيا، بل أضحت كالزهرة تتجه رويدا نحو

الذبول بعدما تقطف "[26]،هذا الانطفاء والذبول موت رمزي، تمكن من "نوارة" بعد أن صارت ذليلة بعد عز بسبب سطوة الفرنسيين و "محفوظ ولد الجاي" على حياة عائلتها وحياة كل الجزائريين حينها إذ أن "فاعلية الخيانة كبيرة في تحقيق الموت في كل أشكاله، فهي تشكل جريمة تودي بالمبادئ والكرامة التي اعتاد الروائي أن يتغنى بها وتودي بالجسد أيضا، حيث يسلم البطل على يد قريبه أو حاكمه...."[27].

2.4الموت المعنوي

كل شخص يحيا حياة جوانية تمتزج فيها مشاعر إيجابية، هذه المشاعر قابلة لان تزهر وتثمر على شكل أفعال ترتقي بالمرء ن في المقابل يمكنها أن تخبو وتندثر ان واجهت ظروفا قاسية أوتثبيطا يعيقها ويصدها، هذا ما نسميه موتا معنويا، الإنسان يحيا بالتفاؤل والاندفاع نحو الحياة، والتغني بالمبادئ الإنسانية (الصدق والوفاء والشجاعة...)، كل هذه الأشياء تبعث الحياة النفسية في الروح، وأي اختلال يطرأ عليها يجعل الإنسان ميتا معنويا.

من صور الموت المعنوي في رواية "كاف الريح" موت أهم شيء يفصل بين الحق والباطل في ذات الإنسان "موت الضمير" يصير الإنسان بعد ذلك أعمى لا يرى الأمور على حقيقتها، يقدم على فعل الشر بلا شعور بالذنب " في قرارتها شعرت المرأة العجوز بشيء ما، انه نداء، صراخ عال يحثها إلى الذهاب إلى ركن الكوخ الأدنى، يدفعها لتقدم نحو الرضيع الصارخ بخطوات ثقيلة آثمة لأجل خنقه لأجل كتم أنفاسه مرة واحدة وإلى الأبد، فينهي علاقة محفوظ بكوخها مرة واحدة إلى الأبد"[28]، مر هذا الخاطر بفكر العجوز ‘‘فاطمة" وانطفأ فجأة نور الضمير والبصيرة فيها، بسبب التعب النفسي الذي نال منها نتيجة الفقر والظلم والوحدة الذي اعتصر قلبها وضيق عليها الحياة، لحظة الضعف البشري هذه كادت تدفع ثمنها غاليا بإزهاق روح بريئة لا يد لها فيما يحصل لها .

الحزن أيضا وجه من أوجه الموت المعنوي؛ هو توقف عن الحياة بشكل ما، انكباب على الذات وجلدها بالألم والوجع حتى تكف عن التفكير في أن تعيش، خاصة ان تعلق الحزن بفقدان الإنسان السبب الأسمى في وجوده وهو الكرامة " دهم محمد الشريف العجوز حزنا عميقا كالليل الحالك في داخله"[29]، لم يتألم للتعذيب الجسدي بل تألم نفسيا "نفسه تألمت اليوم كما لم تتألم يوما من قبل، ان روحه هي ما انكسر في تلك الغرفة المظلمة التي ادخلوه إليها عنوة "[30]، كسره الذل الذي سلطه عليه الجنود الفرنسيون، لم يعهد في حياته غير التقدير والاحترام، عاش كريما شامخ الهامة يطاول عنان السماء، هو سليل أسرة شريفة وصاحب خلق طيب ومكانة محترمة لا يجرؤ أشجع الناس على رمقه بنظرة تحمل قليلا من شأنه، هو اليوم يهان ويضرب من قبل أشخاص هم أرذل الناس.

يظل الشعور بالذل أسوء وأسرع إحساس يجزع الإنسان بالموت الداخلي، يشعره بأنه يعادل العدم وأدنى ما في الكون، يحس أنه كيان مبهم سابح في الفضاء لا مكان ولا قرار له في الأرض "يومها أحست الزوجة الجديدة بأنها أحقر من بعوضة، شعرت بالحزن الممض في داخلها وتمزقت أحشاء بطنها من شدة الألم والندم، بعدما فهمت أنها اصغر أصغر في هذا الكوخ القرميد من نملة تدب فوق أديم الكون أنها اليوم أهون من الدودة وأحقر من الذبابة تطير بجناحيها، أذل من الذل في حد ذاته ؟..."[31]،فقدت الإحساس بوجودها وقيمتها الإنسانية، استصغرت ذاتها واحتقرتها حتى توهمت أنها أتفه ما قد يكون هذا الكون، معذبة بشعور الذل والحقارة.

حين يقسو القلب ويتحجر، تموت الشفقة والرحمة، يفقد الإحساس الدافئ الذي يحتوي الم الآخرين، تداهمه فجأة موجة الوحشية، يصبح وحشا ضاريا يستمتع بأوجاع النّاس، يتلذذ بتعذيبهم كما يفعل "محفوظ" بزوجته "نوارة" " صار

أمرا معروفا في دوار كاف الريح أن محفوظ يضرب زوجته، يستعبدها ويقهرها ويذيقها في الصباح والمساء الأمرين ويسمعها كل مقذع منكر من السب والشتم...."[32]، يقوم بهذا المنكر دون أن يتحرك فيه إحساس ضئيل بالإنسانية، أصبح جماد لا يعي ولا يشعر.

3.4الموت المادي(الفيزيقي):

هو الموت المتفق عليه بأنه الانفصال التام بين الروح وجسدها الذي كانت فيه، ويكون ذلك نتيجة لأسباب عدة، إما موت مقدر لا تأثير للإنسان في حصوله، أو تدخل عوامل تؤدي إليه، التي منها القتل بأنواعه (قتل بالرصاص، ذبح، شنق...)، أو الانتحار يصنع به الشخص حدا لحياته برغبة منه.

أهم مخلفات المعارك والحروب هي حصيلة القتلى، إما القتل دفاعا عن النفس والوطن أو القتل انتقاما وظلما.

يستغل الكتاب أثناء طرحهم قضايا الصراعات القائمة على الحروب المسلحة الموت المادي في أعمالهم الروائية والقصصية، في نسج الحبكة الحكائية، وإعطاء صورة قوية لسوداوية الحرب وأسلوبها الواضح في القتل المتوحش، وتعطشها الرهيب للدماء، فيغدوا العمل كله ينزف بجراح الموتى المقتولين رميا بالرصاص وذبحا بطرق مرعبة وغيرها من طرق القتل.

رواية" كاف الريح" هي الأخرى تعددت فيها أساليب الموت المادي، فنجد شلا أن هناك من مات إثر التعذيب كما حصل لـ"سي إبراهيم" بعد رميه من قبل العساكر الفرنسيين من منحدر صخري تتدحرج مه" فما وصل إلى الأسفل حتى كان جثة هامدة قد غادرتها الحياة، كانت أشواك المنحدر وصخوره الحادة قد تكلفت بقتله..."[33]، كانت موتته مؤلمة لشخص في مثل سنه، انتهت حياته بفعل متوحش لا إنساني، الموت بالتنكيل في تلك الفترة كان أمرا سائرا في المجتمع الجزائري، خاصة السجناء منهم، نفس المصير لاقاه" محمد الشريف" هو الآخر في السجن فقد مات بعد أن نال منه المرض والتعذيب، فكان الموت رحمة له من حياة بالغت في ضراوتها معه" ما أجمله من موت كم هو رائع هذا النصر، كم هو مناسب موت سليل الشراشلة في هذا الوقت. لقد رفع الله إليه، نجاة العزيز القادر مما يريد الأعداء أن يفعلوه بجسمه"[34]، موت العجوز كان نصرا له على أعدائه الذين لا يزالون يطمعون في تهذيبه وقهره.

هناك موت آخر كان ضريبة حياة جديدة، موت الأم ليحيا ابنها، كان ثمن مجيء "أمين" إلى الدنيا باهظا، كلف أمه "نوارة" حياتها، بينما هو في طريقه إلى الحياة، كانت هي تزفر آخر نفس لها" أسلمت نوارة شرشال روحها إلى البارئ، في غرفة كوخهم الجانبية"[35]، لم تصمد الأم طويلا بعد إنجابها ابنها "أمين"، حالتها الصحية المتدهورة بسبب المعاناة التي عاشتها في بيت زوجها "محفوظ"، جعلتها تفارق الحياة بعد أيام قلائل من ولادتها.

أحيانا يكون القتل هو الحل الأمثل للتخلص من شر عظيم، تأججت نيرانه واستفحل داؤه حتى لم يسلم منه أحد، كذلك تهيأ ل ‘‘كمال"، رأى في "محفوظ ولد الجاي" عالة لابد من التخلص منها، ومرضا خبيثا ينهش كيان الوطن ويبتلع الأبرياء بسبب خيانته من جهة، وتطاول يده بالبطش والأذى لعائلة "كمال" وسكان قريته من جهة أخرى، تيقن أن الحل الوحيد الذي سينفع معه ويستأصل شره هو القتل، كان قتل محفوظ ذبحا بسكين حاول ضرب "كمال" بها ولم يفلح، فاستلها منهو " مسح بها النحر مثلما مسح على نحو العديد من أمثاله، ممن شكلوا لسنوات طويلة عيون الاستعمار البغيض... سالت الدماء سوداء غزيرة من عنق محفوظ المجندل ..."[36]،مات "محفوظ" ميتة تليق بحياة بذلها في الخيانة والذل والرضوخ للعدو لقضاء مصالح تافهة، تتناسب أفعال الوحشية من ظلم واحتقار واستضعاف لأبناء وطنه.

الفرنسيون أيضا استحقروا الموت بطعنات الألم، كما فعل "كمال" بضابط فرنسي، وهو ما كان يفعله مرارا في بداية مشواره الثوري يقول:" غاص القضيب المعدني الحاد في خاصرته أكثر ما يجب، حتى لقد أحسست طراوة اللحم وسخونة الدم تغمر أصابعي.

لم أستطع سحبه لأوجه طعنة أخرى أضمن بها موته؟"[37]، رغم بساطة الوسيلة التي استعملها "كمال" في القضاء على الضابط، إلا أنها كافية لإنهاء حياته وقتله.

5. خاتمة:

كانت هذه أبرز أشكال الموت وتمظهراته التي تجلت في رواية" كاف الريح"، وطاوعت المسار السردي، ووجهت حركة الأحداث نحو التأزم تارة والانفراج تارة أخرى، صاغها الكاتب في قوالب تتناسب ونوع الموت، ويبقى الموت الأكبر في الرواية هو موت الحرية بسبب الحرب، الذي تولدت عنه أشكال الموت الفرعية التي رأيناها، إذ بمجرد استرجاعها، انفتح أفق الحياة وتدفق شعاعها في النفوس يحييها وينعشها.

7. قائمة الإحالات:

[1]عصام محمود ،مامعنى التيمة؟،شبكة فصيح العلوم العربية، https://www.alfaseeh.com/vb/showthread.php?t=55533.

[2]جميل حمداوي، المقاربة الموضوعية في النقد الادبي https://www.arabicnadwah.com/articles/muqaraba-hamadaoui.htm

[3] سعيد علوش ،النقد الموضوعاتي، شبكة بابل للنشر والطباعة، الرباط ،المغرب: ط1-1989،ص165.

[4]المرجع نفسه:ص06.

[5]يوسف وغليسي مناهج النقد الأدبي،جسور النشر والتوزيع،الجزائر،ط1-1428-2007،، ص154

[6]المرجع نفسه، ص155.

[7]سعيد علوش،النقد الموضوعاتي،ص10.

[8]نفسه،ص10.

[9]مرتضي الزبيدي،تاج العروس في جواهر القاموس(باب التاء)،دراسة وتحقيق علي الرشدي،دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، ط3،مج3 ،1994،ص135.

[10]ابن منظور، لسان العرب،دار صادر، مادة(موت)،ط6،مج2 -1417-1997،ص90-91.

[11] جمال محمد احمد سليمان،الوجود والموجود، مارتن هايدجر ،دار التنوير،د ط،2009-ص187.

[12]أرنولد توبينبي وآخرين،الإنسان وهموم الموت،ترجمة: عزت شعلان ،المركز القومي للترجمة،القاهرة،ط1-2001.،ص10.

[13]أبو حامد الغزالي، مجموعة الرسائل الاسلام للغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط4- 1427-2006م،ص102.

[14]أرنولد توبينبي وآخرين،الإنسان وهموم الموت ص62.

[15] تبيل حمدي الشاهد، العجائبي في السرد العربي القديم ، الوراق للنشر والتوزيع ، دط، د ت، ص22.

[16]المرجع نفسه، ص27

[17] المرجع نفسه ، ص27.

[18] المحفلي محمد، تشكلات الموت في الرواية، https://www.n-dawa.com/articles.php?cat=2&id=58062016

[19]المرجع نفسه.

[20] سامية غشير، دلائلية الموت ورمزيته في الخطاب الروائي الجزائري http://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=593498&r=0

[21]أحمد محمد عبد الخالق، قلق الموت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت،1998، ص16.

[22] ياسين نوار، كاف الريح، دار الكتاب العربي،الجزائر، 2016، ص 39.

[23] ياسين نوار، كاف الريح، ص 62.

[24] المصدر نفسه، ص18.

[25]المصدر نفسه، ص64.

[26]مصدر نفسه، ص42.

[27]سمية عصام إبراهيم وادي، جدلية الحياة والموت في روايات غسان كنفاني وإبراهيم نصر الله،، "دراسة تحليلية "،الجامعة الإسلامية –غزة،كلية الآداب،ماجستير لغة،1438ه/2017م. ص70.

[28] ياسين نوار، كاف الريح، ص243.

[29] المصدر نفسه، ص 143.

[30] المصدر نفسه، ص 144.

[31]المصدر نفسه، ص288.

[32]المصدر نفسه، ص193.

[33] المصدر نفسه، ص .24

[34] المصدر نفسه، ص 148.

[35]المصدر نفسه، ص 211.

[36]المصدر نفسه، ص 363.

[37] المصدر نفسه، ص 40.